

3 — ان فكرة الخلود ، والملائكية التي استطاع
بهما الشيطان ان يطغى آدم وزوجه وكذلك
احساسهما بالخطيئة ، وطلب العفو بالاستغفار ،
ومن ثم الرجوع والتوبة .. كل ذلك يتطلب لغة
عالية ، ومنطقا رفيعا ، وبيانا اصيلا ، للتعبير
منها .

اذن فالمحتبة الاولى ان الله خلق آدم وسواه
بيديه على احسن صورة واكمل شكل ناظرا سامعا
ناطقا مبينا ، وانه نطق من اول لحظة تنسم فيها
نسيم الحياة وتعامل مع بيئته وناسه باسمى لغة
واقى تعبير ...

نسبحان الذي يقول للشيء — اذا اراده — كن
.. فيكون . وصدق الله اذ اتمن على الانسان بقوله :
الم نجعل له عينين . ولسانا ولسنتين وهدىنا
النجدين .

والسؤال الذي يتردد في هذا المجال : ما هي
هذه اللغة التي تكلم بها الانسان الاول ؟؟

اللغة الام :

واوية صغيرة الى التاريخ لتتصور من خلالها
على شكل ممكن وتربب اول السلسلة البشرية
منطلقين من آدم وهو ذكر نمد على الارض والـ
جانبه زوجه حواء الانثى الفردة .

مقد عاش آدم على الارض زهاء 1.000
سنة ، وقد انجبت له حواء عشرين بطنا في كل بطن
فكر وانثى . وبلغت ذريته في حال حياته تربية 40
الف نسبة ا في — بوذ — وقد اوصى قبل موته الى
ابنه ا شيث . سار آدم في حياته على نهج الصحف
التي نزلت عليه فهو اول نبي واول رسول واليه
ترجع مبادئ علم كل شيء استلزمته حياة البشرية
الاولى .. ومات قبل الطوفان بنحو (726 سنة) بعد
ان ادى الى البشرية ما يلزمها من دواعي البقاء
والاستمرار والتحسن . وبعد ما افرغ اوعية العلق
الذي اودعه الله عنده .

واما ا شيث (الابن الوصي لمقد ولد في العام
130 من حياة ابيه آدم . عاش في مكة يهجر ويمتدح .
وجمع الصحف التي نزلت على ابيه وضمها الى

الصحف التي نزلت عليه وهكذا كان شأن الانسان
باربباطه بالسما على كل فترة شيء جديد وعلوم
جديدة تناسب الانسان في تطلماته الجديدة فيضها
الى سابقتها ويسير على نهجها — وشيث النبي سار
على هذا النهج ، وقام بالامر والنهي والدلالة على
طريق السعادة . ويقال انه بنى الكعبة بالحجارة
والطين . وهي اول بيت وضع للناس ، ولعل بناء
هذا البيت كان المحرك الاول لفكرة البناء التي اخذ
بها الانسان من مصور حقيقة : كما ان ا شيث (هو
المعلم الاول في هذا الموضوع . والبناء الاول . ولد له
نفر كثير ولكن الوصية كانت في ابنه (انوش) .

وتتابع هذه السلسلة التي هي اصل البشرية
فيما بعد ما انوش وولد له نفر كثير واما الوصي فهو
ابنه قينان الذي ولد في العام (325) من حياة آدم ،
وولد لقينان نفر كثير منهم (مهلائيل) وهو الوصي
وولد لمهلائيل نفر كثير منهم (برد) وهو الوصي وولد
لبرد نفر كثير منهم (اخنوخ) وهو الوصي .

واخنوخ هذا هو ادريس النبي سمي ادريسا
لدراسته الصحف التي نزلت على آدم وشيث ،
وادريس هو اول من نظر في علم النجوم والحساب ،
وهو اول من غاط الثياب وقبس المخيط .. فهو اذن من
تلك الحركات التي نهت الدواعي الميعة في الانسان
على درب البناء والتطلع الى المستقبل وتحسين
الوسائل التي بين يديه واكتشاف ما خبىء من اسرار
في هذه الارض وما يحيط بها .

ولد لادريس خلق كثير وكانت الوصية لابنه
ا متوشلخ ، وكذلك متوشلخ اوصى لابنه ا لمك .
ولمك هذا هو ابو نوح الرسول . فكانت السلسلة من
آدم الى نوح كما يلي :

آدم — شيث — انوش — قينان — مهلائيل — برد
— ادريس — متوشلخ — لمك — نوح .

ولقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت
على ملة الحق . وانما وقع الكفر والفساد في القرن
الذي بعث فيه نوح بالانذار والوعيد حيث كثر الفساد
وشاع الكفر والاحاد .

ولد نوح في العام 126 من موت آدم اي في العام
1126 ، من حياة البشرية وقد ارسل الى قومه ،
ومك فيهم يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر زما

طويلا ، لما آمن معه الا قليل فدعا دعوته المدمرة التي شملت كل مخلوق على الارض ، ما عدا اهل السفينة (وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا ناعرا كفارا - نوح 26 - 27) .

امر نوح ببناء الفلك وعندما باشر فيها سخر قومه منه لانهم لم يتصوروا ان بناء ما سيموم على وجه الماء ، وبهذا الفتح الجديد في عالم التجارة والمعوم بالمنجور على صفحة المياه يكون نوح احدى الحلقات في سلسلة العلوم واصولها التي بنت عليها البشرية ، وما زالت تبني حضاراتها المختلفة .

« واصنع الفلك باعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مفترقون . واصنع الفلك وكلما مر عليه مالا من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل .. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفترقين . وقيل يا ارض ابلعي ماك وما سماء اقلعي وغيب الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . (هود) »

يتكلم علم الجيولوجيا عن اكثر من مرة طفت فيها مياه البحر والامطار الغزيرة على اليابسة لغمرتها كلها، واهيئاتا فغمر اكثر اجزائها او بعضها ولكن مع اختلاف بين علماء الجيولوجيا حول تحديد تلك الازمنة الجيولوجية التي حدثت فيها طغيان المياه على الارض وترب تلك الحوادث من التاريخ البشري او بعدها منه .. وانكر على سبيل المثال حادثتين مما يذكره علم الجيولوجيا :

1 - حدث طغيان بحري عام (طغيان المصفر السينوماتي) دلت عليه الاراضي الحوارية في مختلف الاصقاع . وذلك فيمنتصف الدور الحواري (الكريتاسي) وهو آخر ادوار الزمن الثالثي الجيولوجي والذي تليه حقبة الحياة الحديثة .

2 - في دور الميوسين (الدور قبل الاخير من الزمن الثالث) تقلص البحر المتوسط الكبير اتبقيس ا حتى اصبح اصغر رقعة من البحر المتوسط الحالي ، ثم طفت البحار على اليابسة فاصبحت رقعة البحر المتوسط واصبحت ابعاده شبيهة بابعاده الحالية واهلك من الشرق ، وذلك في البليوسين . وهو الدور الاخير من ادوار الزمن الثالث - الملعب بحقبة الحياة الحديثة (دور بدء ظهور الانسان على الارض .

هذه المقالة الجيولوجية تتراوح بين تطبي الظن واليقين حتى بين علماء الجيولوجيا انفسهم . واما الذي اومن به انا فهو ان الطوفان قد حصل ، وهو طغيان الماء على اليابسة بشكل عام ذلك الطغيان الذي دمر الحياة واغرق الاحياء والنبات ، ولا زالت الحفريات تكشف عن هيكل احياء تلك الحقبة من ناس وحيوانات وعن اشجارها ونباتاتها المظورة.. وما البترول وتركيبه العضوي سوى دليل واضح على تلك الاجساد التي اغرقت بالماء ، وطمرت عوامل الانجراف . حيث ثبت بالتحليل وجود مواد في البترول تنتج مادة من تحليل يخضور النباتات او خضاب الدم .

كما ان الزمن الذي حصل فيه الطوفان قريب من زمننا هذا وعلى بعد (4.500 - 5.500) وهذا الرقم يكاد لا يذكر امام الارقام الخيالية التي يضمها علماء الجيولوجيا رغم اختلافها ، والذي دللني الى اغفال ما قالوا وتثبت هذا الرقم (4.500 - 5.500) هو :

1 - عدم اتفاقهم على رقم معين ، بالاضافة الى الفروق الشاسعة بين ارقامهم انفسهم .

2 - ما تعرضه على الخط الذي اتبعه في بعثي هذا من حيث البناء على الاخبار التاريخية هي التي دلفمتني لوضع هذا الرقم .

لنرجع الى بحثنا الاصيل فاقول :

يعتبر نوح ابا البشرية بعد آدم حيث ان الذين ركبوا معه هم ابناؤه واسرهم المؤمنون (قال عز وجل: وجعلنا ذريته هم الباقين .. ثم افرقتنا الاخرين . (الصافات) .

وقد أجمع المؤرخون ان لنوح أربعة اولاد هم :
كنعان — سام — حام — يافث . لما كنعان مهسو
الفريق ، واما الثلاثة الآخرون فالى نسلهم ترجع
البشرية .

وفي الحديث : الذي رواه اكثر من واحد من
طريق (قتادة والحسن وسرة بن جندب وعمران بن
حصين) رضوان الله عليهم ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ،
نسام ابو العرب ، وحام ابو الزنج ، ويافث ابو الروم »
نسام اذن ابو العرب ، واليه ترجع اللغات
النسائية كلها ، وكان من اولاده ارم — وارهشند —
واشوذ — ولاوذ وعويلم .

وولد لارم بن سام : عوص — وغائر — وهويل ،
وولد لعوص : غائر بن عوص ، وعاد بن عوص ،
وعبيل بن عوص . وولد لغائر بن ارم : ثمود بن غائر
وجديس ابن غائر . وكانوا قوما حربا يتكلمون بهذا
اللسان المصري ، فكانت العرب تقول لهذه الاسم :
العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون
لبني اساميل (ابن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن
ساروخ ابن ارغوا بن فالخ بن غابر بن شالخ بن قينان
بن ارفخشذ بن سام) العرب المتعربة لانهم انما
تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهريهم . فعاد
وثمود والمعاليق (الكتمانين) واميم وجلسم وجديس
وطسم هم العرب (كما يقول التاريخ) .

ومن ولد ارفخشذ بن سام الانبياء والرسول
وخيار الناس والعرب كلها والفرانجة بمصر ومن ولد
يافث ملوك الامم كلها من الترك والخزر وغيرهم ،
والفرس الذين آخر من ملك منهم يزديجرد بن شهريار
ابن ابرويز ونسبه ينتهي الى جيومرت بن يافث بن
نوح .

واما تحطان بن حابر الذي حكم اليمن والذي
هو اول من سلم عليه — (ابيت اللعن) فكانت
نسبته الى نوح كالاتي :

« نوح — سام — ارفخشذ — قينان — شالخ —
حابر — تحطان — يعرب .. وهكذا » ولقد ولد لحابر
(وهو ابو تحطان) تحطان ومالغ ، ومالغ معناه قاسم
وسمي بهذا الاسم لان الارض قسمت واللسن تبللت
في ايامه .

وعلى ذكر بلبله الالسن ، ذكر المؤرخون ان اللغة
كانت واحدة بالنسبة لثرية نوح وقد تفرقت واختلقت
فيما بعد ، وقد وردت عدة اسباب لهذا الاختلاف منها :
ما يقوله ابن جرير الطبري في تاريخه (ص 210 ج 1)

« وكان مولد مالغ بعد الطولمان بمئة واربعين سنة
لما كثر الناس بعد ذلك مع قرب عهدهم بالطولمان
هبوا ببناء مدينة تجسمهم فلا يفرقون او صرح حال
يحرزهم من الطولمان ان كان مرة اخرى فلا يفرقون ،
فأراد الله عز وجل ان يوهن امرهم ويخلف ظنهم ويعلمهم
ان الحول والقوة له ، فبدد تسلمهم وشقت جسمهم وورق
السنتمهم ، وكان عمر حابر (474 سنة) »

« وقال الحارث بن محمد : كان يقال لعاد في
دهرم عاد ارم لما هلكت عاد قيل لثمود ارم ، فلما
هلكت ثمود قيل لسائر بني ارم : ارمان ، فهم النبط ،
فكل هؤلاء كان على الاسلام (أي التسليم لله الواحد)
وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن
حام بن نوح فدعاهم الى عبادة الاوثان ، ففعلوا
فامسوا وكلامهم السريانية ثم اصبحوا وقد بلبل الله
السنتمهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فصار
لبني سام ثمانية عشر لسانا ولبني حام ثمانية عشر
لسانا ولبني يافث ستة وثلاثون لسانا ، ففهم الله
العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعيليق وطسم
واميم وبني يعطن بن حابر .

وبهذا الموجز التاريخي نكتفي لترجع السى
موضوعنا الاساسي ما هي اللغة الام التي تكلم بها
الانسان الاول ثم ورثها بنيه من بعده .

المعروف ان الاسرة هي المدرسة الاولى للانسان
فمنها يتلقى اول ما يتلقى اللغة ثم العادات والتقاليد ثم
الاخلاق والمثل .. الخ .

ومن السرد التاريخي الموجز الآنف الذكر نجد
بالضرورة ان السلسلة البشرية ما بين آدم ونوح
وبالتالي ابنائه (سام وحام ويافث) كانت تتكلم لغة
واحدة .

اولا — لان الصلة وثيقة بين الاب (الموصى)
والابن (الموصى له) .

ثانيا — لقلة العدد وغلبة الاجتماع في منطقة واحدة
— الا ما ندر .

ثالثا - لطول حياة آدم وقربها من مولد نوح عليهما السلام (126 سنة) .

فإذا ثبت ذلك نرجع لنبحث عن تلك اللغة الواحدة التي سادت تلك العتبة من التاريخ ودوت الناظها على وجه البسيطة .

وبناء على ما تقدم : فإن آدم عليه السلام قد تكلم - أول ما تكلم - في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض ، وأجرى مناظرته في علم الأسماء مع أهل الجنة من ملائكة وغيرهم ، فما هي لغة أهل الجنة يا ترى ؟ ..

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وعن أبي هريرة بطرق مختلفة بعضها بعضها بعضا ، بهذا المعنى وبهذا اللفظ أحيانا وقريبا منه ما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أحبوا العرب لثلاث لاني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة لي الجنة عربي » (12) .

وعلى هذا يكون آدم قد نطق بالعربية ومن ثم تمايل بها عند ما هبط إلى الأرض ولقنها لابنيه من بعده (والله أعلم) .

واستمرت هذه اللغة يتناقلها الأبناء عن الآباء حتى عهد نوح .

وإذا كان سلم بن نوح هو أب العرب ، فمن باب أولى أن يكون نوح أب العرب أيضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويانث ، وما تخصص سام بأبوة العرب إلا بمعنى لغات أكثر فروعها على اللسان العربي بمعنى غالبية الفروع في حام ويانث التي تأثرت بالبيئات الجديدة وابتعدت عن موطن اللغة الأم فتطورت كلمات وتكونت لهجات ثم تعمقت لغات على درب البشرية الطويل ويوضح هذا المنح أكثر فأكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه : « ليسست العربية لأهكم من أم ولا أب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق بالعربية فهو عربي » .

ونخلص إلى النظرية التالية :

العربية أم اللغات وأصلها الأصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والعمامية كان أصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والهاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور .

يقول الإمام القلقشندي في موسومته (صبح الاعشى) (13) عن اللغة العربية :

« أما فضلها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (تعلموا اللحن والفرائض من الله من دينكم) . قال يزيد بن هارون (اللحن هو اللغة) . ولا خفاء أنها أمتن اللغات . وأوضحها بيانا . وأذلتها لسانا وأمدتها روايات ، وأعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله وخاتم أنبيائه وخيرته من خلقه وصلوته من بريته . وجعلها لغة أهل سماه ، وسكان جنته ، وأنزل بها كتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

« قال في صناعة الكتاب : وقد اتفقت اللغات كلها لغة العرب ، فاقبلت الامم اليها يتعلمونها »

وأما ظاهرة اختلاف الألسن وتمدد اللغات التي مر ذكرها أننا ، للحكمة يريدنا الله ، والاختلاف بعد ذاته آية من آيات الله ، قال تعالى ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السننكم واللغات . ان في ذلك آيات للعالمين » (الروم 22) .

والاختلاف لا يكون إلا من بعد الاتفاق ، والاتفاق كان على اللغة الأم ، ومن ثم تفرعت وتم اختلاف الألسن .

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلوا ولولا كلمة سبقت من ربك لغضبي بينهم فيما فيه يختلفون » (يونس 19) .

ولعل هذا الاختلاف إنما كان لتمييق الناس من أجل الإصلاح والانفصال والآخر ولعدم اجتماع الناس على الفساد ..

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، البقرة 251 .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... » (الحج) .

الطائفة :

من الماء ، وهذا يعني الساحل لان الساحل
ايضا هو ريف البحر وشاطئه .

من كلمة ريف جاءت كلمة (Ripa) اللاتينية
وهي بمعنى ساحل - ومنها Riviera
الاطالية : ساحل - ومنها Rivière الفرنسية:
وهي بمعنى ساحل تدنيا وهدينا بمعنى نهر -
ومنها Rive الفرنسية : ساحل - ومنها
River الانكليزية : بمعنى نهر .

2 - كلمة (صج) صوت اصطلق العديد منها
(صنج) آلة الطرب النحاسية . ومنها (سنجة)
كلية الميزان - ومنها (سنجة) حجر الميزان .
وبنفس المعنى جاءت كلمة (سنكة) الفارسية
وصيغت منها كلمة (سنك) اي الحجر ، ومن
هذه كائن (Singan) السكونية - و (Sing) الانكليزية
وهي بمعنى يفتني .

3 - كلمة (بلاط) تعنى في العربية الارض المستوية
المساء . وهي ام الكلمات الآتية :

Platta اللاتينية بمعنى صحبة .
Piazza الايطالية بمعنى ساحة .
Plate الفرنسية بمعنى طبق .
Piat الانكليزية بمعنى سطح .

وكلها تشترك بمعنى الاستواء والسطحية .

هذا نموذج مصغر مما قيل في العلم ارجاع
اللغات الى اللغة الام (الترسيس) . واما الوصول
الى درجة اليقين المثلث في هذه الناحية بالسذات
فيحتاج الى التحقيق والتدقيق المستمرين .

واخيرا يجيب هذا البحث على ما ورد من تساؤلات
في مطلع ، وباليعين الثابت ان البشرية ترجع الى آدم
(عليه السلام) وان آدم لم يكن له مقدمات في عالمي
الجن والحيوان ، ولكنه كان على احسن صورة يتمتع
بنفس الحواس والاجهزة التي يتمتع بها انسان اليوم ،
ومنها النطق والبيان ، وقد اودع الله فيه من الاسرار
ما يكفيه ليكون خليفته في ارضه ، كما ان الله سبحانه
وتعالى قد علمه اساء كل شيء مما سيتبع تحسنت
ناظره ويديه ، فكان هذا العلم ذخيرة من الالفاظ
والكلمات المدركة الجاهزة اخذ يطلقها على امرادها عند
اللزوم ، وقد علمها ابناؤه وذريته قبل ان ينتقل السى
العالم الاخر ... وبغير هذا لا يقبل القتل ابدا ..

واما تعدد اللغات فهو ظاهرة طبيعية ومعقولة
ترجع الى تفرع اللهجات عن اللغة الواحدة ، وبالتالي
تحسنت على مر العصور ، وقد رافق ذلك استنباط
كلمات جديدة وتركيب الفاظ حديثة نتيجة لسبببات
مستعنة .

واما من اللغة الام فكان الجواب منها ثابا على
اساس الظن اليقيني او بتصبير آخر على توى الظن؛
وذلك لتولي ان العربية هي ام اللغات واصلها الاصيل.

ولقد بحث بعض علماء اللغات العبية في موضوع
العربية وارجعوا كلمات كثيرة من اللغات الاخرى اليها
من ذلك ما قاله (14) الاستاذ عبد الحق نماضل (نزول
المغرب العربي) :

1 - كلمة (ريف) في العربية معناها الارض القريبة

- 1] عندما نقل احد الباحثين المحققين هذا النص الى كتاب له ، علق هنا بقوله : « هذا مجرد رأي لهكسلي
بوصله - دارونيا - وهو طبعا يمز عليه ان يتراجع من فروض دارون كلية امام ضغط الحقائق
الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل ، وهو يتظاهر بانه ثابت على اصول النظرية .. والانسان يحتوي
الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية » .
- 2] هنا يظهر تراجع هكسلي بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الاحاد والمادية .
- 3] نحن ننقل نصوص هكسلي كما هي - بغض النظر عما نخالفه فيه في نشأة الانسان .
- 4] ص 123 - 124 من كتاب الخطر اليهودي - لمؤلفه محمد خليفة التونسي
- 5] ص 49 - 52 من كتاب التلمود - جمع عبد المنعم شميس .
- 6] طباعة دار المعارف بمصر (ذخائر العرب - 30)

- (7) الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية لمالكها وندبرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر .
- (8) الكلام الموجود داخل الاتواس في الاسطر الاخيرة من هذا النص ليس من اصل النص بل هو تفسيري .
- (9) روى الحاكم من جابر قال : قرا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال مالي اراكم سكوتا . الجن كانوا احسن منكم ردا . لما قرأت عليهم هذه الآية : (غياي الاء ريكا تكذبان قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . . .) تفسير سورة الرحمن في الجلالين .
- (10) كتاب شفاء المليل . لابن قيم الجوزية .
- (11) اخذت هذا الموجز بتصريف من تاريخ الطبري الجزء الاول من الصفحات الاولى حتى الصفحة 250 وعلى الاخص الصفحات 145 - 155 - 167 - 178 - 204 - 205 - 207 - 210 ، فليرجع اليها في حالة الاستزادة .
- (12) كشف الخفاء - ج 1 ص 54 - للمحدث الشيخ اسماعيل بن محمد المجلوني الجراهي المتوفى سنة 1162 هـ .
- (13) الجزء الاول ص 148 .
- (14) بتصريف من العدد الخامس من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب الرباط . وقد جاء البحث تحت عنوان (علم الترسيب) .



اللغة والمجتمع الإنساني

أحمد عبد الرقيب السامح

مشيخة جامعة الأزهر

يلجأ الإنسان الى لفته بمفرداتها وقوامدها يستمين بها ، يضع لهذه المعاني الفاظا او ينقل الفاظا من معانيها التي وضعت لها ، الى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فان لم يجد الإنسان في لفته ما يسعفه لجأ الى الاقتراض من لغات اخرى وقد يصقل ما يقترض بمصقل لفته لينتظم فيها وكأنه منها ، ولا يقتصر الامر على الالفاظ بل يمتددا الى الاساليب فهي الاخرى تنمو وتتطور ، فاذا باساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق ، كل ذلك لان حياة الإنسان تنمو وتتطور واللغة اداة ووسيلة فلا بد لها من ان تسير تطور الإنسان والامات لان حياتها يوفالها .

والذي يرجع منا الى صورته وهو طفل ، وصورته وهو شيخ طامن في السن ، وصورته وهو شاب او صبي ، او كهل ، يرى التغير والتبدل الذي اصاب كيانه واضحا ليما تنطق به الصور ، ولكن الإنسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ، ويملق في ذهنه من أمسه بمضه لا كله ، واللغات شأنها شأن الإنسان : فهي تتطور وتتغير وتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الامس الغابر واليوم المائل .

اللغات هي : مجموعة من الرموز الاصطلاحية من حيث المفردات ، ومجموعة من القواعد النحوية الاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات . فهي لهذا لا تخضع لمنطق حتمي عام ، لانها اصطلاحية اتفاقية تقليدية موروثة او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين الناس جميعا ، الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر ، اما اذا فقد عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية التقليدية غير المتفق عليها بين الناس ، لهذا اختلفت اللغات فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقوامدها ونظمها ، واللغة لشدة التاثر بها والتطبع عليها تبدو لتكلمها وكأنها من الامور الطبيعية ، ويبدو ما يخالفها شادا غريبا لا يقبلونه الا في حدود معينة (1) .

النمو والتطور :

حياة الإنسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وافكاره تتسع وحضارته تتقدم وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الاخرى تتطور وتتقدم وتتمدد ، وهذا يعني انه يجد في حياة الإنسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها . لهذا

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الانسان ، اذ منها ما بين مولدها وعصرنا ، المئات من السنين فنصفها بأنها حديثة وما هي بالحديثة ، واخرى ما بين مولدها وعصرنا الاولف من السنين ونصفها بأنها قديمة ، لاننا اذا رجعنا الى اصولها ، او الى اصل الاصول ، كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن ان يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فلاسباب :

ان اللغة الام لم تخلف لنا من الآثار ما يدل عليها ، ويتطور الانسان تطورت لفته الى لغات وكان التطور تدريجيا فنسي الانسان اسم لفته وعاش حاضرها ، فانقرض ما انقرض وعفى الزمن على ما انقرض ، فنسيته الاجيال ، اما بالنسبة لاصول لغات ماننا الحديث فالتى ولدتها ام وكانت ولادتها حديثة . عرف اصلها اي امها كاللغات المولودة من اللاتينية ، اما ما كانت ولادتها قديمة فقد نسيتم امها ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقوامدها ونظمها اللغوية فى الاسفار ومنها ما خلف اسمها آثارا فامكن ان نشين بعض - لا كل - صور تطبيقاتها وتغيرها وتبدلها ومنها ، ما لم يدون فى الاسفار ولم يخلف اسمها الآثار فلا نعرف عنها الا صورتها الحاضرة ، ان لم تكن قد انقرضت ، ونعود الى لغات العالم التى تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ونسال هل تعطي هذه الصور واقعا يطابق واقع اللغة وهى تتطور وتتغير وتبدل فى الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ؟ .

الحقيقة لا : لان هذه الصور نسبية تماما كصورة الشيء لا تعنى انها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته ، فكم من الالفاظ بادت ، وكم من الاساليب عفى عليها الزمن ، وكم من القواعد والنظم لم تصل اليها اجهزة المصور اللغوي فانساهها الزمن .

وسؤال آخر يقفز الى الذهن ويتطلب الجواب :

ما هي اسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض فى اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد اهم تلك الاسباب فيما ياتى :

1 - النمو والتطور والتغير والتبدل فى حياة الانسان نفسه وهذا يدفعه الى ان يضع لما يجد من جديد الالفاظ واساليب ونظما لغوية .

2 - نقل الالفاظ الموضوعه للمعاني ، فتطاول الزمان يدعو الى وضع الفاظ جديدة .

3 - من المعاني ما يرتبط بعصر من العصور فاذا انقضى العصر لا تكون هذه المعاني من التراث الفكرى والحضارى للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .

4 - وعدم وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكرى والادبى وازاء ذلك يضطر الانسان الى ان يغير ويبدل او يهجر لفته .

5 - التحريف والتغيير والتبدل فى اللغة قد يستقر فى دلالاته فيخرج الاصيل حتى ينسى .

6 - ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية اتفافية غير مستقرة لهذا فقد تلد لغات او لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات واللهجات المولدة وتهجر اللغة الام .

7 - تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .

8 - تجاوز الام واختلاط الشعوب ، سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتقترض اللغة من لغات الامم والشعوب ما تقترض منا هو ليس موجودا فيها .

9 - تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تتاثر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .

10 - انقراض الاسم والشعوب يؤدي الى انقراض لغتها لان اللغات ترتبط بمتكلمها فاذا انقرضوا انقرضت .

11 - تشتت الامة والشعب يؤدي الى تآثر لغتها او لفته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتتة .

12 - بعض اللغات تمتاز بسهولة قوامدها ومرونة اساليبها ، وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر اناتها اذا كانت قوامدها واساليبها شديدة التعميد .

نواحي التطور والتغير اللغوي :

وذاتيتها ، ويتكلمها الملايين ، وهذا هو الذي يدعوننا الى التساؤل ما هي المقاييس التي يقاس بها كون اللغة حية او ميتة ؟

ما يجب به على هذا التساؤل : ان العلماء يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية والاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، فاللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية لان اللغة كما عرفها بعض الباحثين هي وسيلة للتعبير والتفاهم وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي يرتضيها ، ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر اذا توفر في اللغة باضافة الى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية ، وهي ان تكون اللغة سهلة في قواعدها مرنة في اساليبها ونظمها وعلى اساس هذا المقياس : للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في حدود ضيقة كان يجري تأليف وترتيب الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدي الكلام المؤلف منها معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر، واللغة ينبغي لها ان تسير هذا ، وهي وسيلة وللمجتمع ان يختار تلك الوسيلة ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد المجتمع وتقف حجر عثرة امام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس بل يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد آثاره الادبية والعلمية والفكرية والمقائدية هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء العلماء لاممهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم ، كيفما شاءوا ، بل لابد ان يكون التطور والتغير في اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة الابعاد ، وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم العلمي والفكري والحضاري ، ويربطون بينها وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاهيرهم واهدافهم في الحياة (2) .

نشأة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشأة اللغة الانسانية واصلا منذ اقدم العصور ولا زال علماء اللغات يدرسون ويبحثون ، ولقد مالجهما فلاسفة

1 - التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك

بان يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه في مصر ، وفيهما منه في العراق ، وكذلك في مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت يختلف عنه في القاهرة ، وكذا حرف القاف والضاد ، او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

2 - توسيع القاعدة اللغوية وذلك بان يخضع اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

3 - اقتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة من الوفاء بوضع مفردات جديدة او لا يكون ذلك من عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

4 - استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية : ذر الرماد في العيون ، وهاش ستة عشر ربيعا ، ووضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس ، وساد الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا ، الاصطلاحات الفنية والادارية : كهيئة المحكمة وتشكيل المحاكم ، وانعقدت المحاكم ، وتعريف الرسوم ، واللاسلكي ، والانهائي .

5 - تبدلات نرفية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او سماع .

مقاييس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بانها : حية ، ومنها ما توصف بانها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت الشعب الذي يتكلمها فخالط اما وشعبا مختلفة اللغات وكان ان مسخت لغة الشعب المشتت ، وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها

اليونان وعلماء اللغة العربية والاسلام واهتم بها الباحثون المحدثون من الاوربيين ومشي على آثارهم كثير ممن اخذ عنهم ، وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم وقد اختلفت وجهات النظر ونتج عن ذلك نظريات كثيرة منها : ان اللغة الهام وتعليم من الله : بمعنى ان الواضع للغات هو الله سبحانه وتعالى وقد بلغها الانسان بطريق الوحي والالهام او بايداع ذلك في طباعه .

1 - وذهب الى هذا الراي جماعة من المفسرين وقد حكى ابن جنى من بعض المفسرين في تفسير الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » ان الله سبحانه علم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والبرانية والرومانية ، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم ان ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحل عما سواها لبعدهم بها ، واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده والانطواء على القول به (3) .

ومن ابن عباس انه كان يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه الاسماء التي يتعارفها الناس من دابة وارض وسهل وجبل وجمل وحمار واشباه ذلك من الامم وغيرها ، ومن مجاهد انه قال : علمه اسم كل شيء ، وقال غيرهما : انما علمه اسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمه اسماء ذريته اجمعين .

2 - ومن ذهب هذا المذهب : الاصوليون ، قال الامدي حاكيا آراء العلماء في ذلك: اختلف الاصوليون فيه، فذهب الاشعري واهل الظاهر وجماعة من الفقهاء الى ان الواضع هو الله تعالى ، ووضعه لنا متلقى من جهة التوقيف اما بالوحي او بان يخلق الله الاصوات والحروف ويسمعا الواحد والجماعة ويخلق له اولهم: العلم الضروري بانها قصدت للدلالة على المعاني ، محتجين على ذلك بايات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا » وهذا يدل على ان آدم والملائكة لا يعلمون الا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم

يعلم » . واللغات داخله في هذه المعلومات ومنها قوله تعالى : « ان هي الا اسماء سميتها وانا انزلها على من يشاء من عبدي » وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السننكم » المراد به اللغات لا نفس اختلاف هياكل الجوارح من الاسنة . لان اختلاف اللغات ابلغ في مقصود الآية (4) .

3 - وذهب طائفة من علماء اللغة الى مثل ما ذهب المفسرون والاصوليون حكى ابن جنى في الخصائص عن استاذه ابي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال : ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (5) .

وايد ابن جنى هذا الراي فقد جاء عنه في الخصائص : « واعلم فيما بعد انني على تقادم الوقت دائم التنقيح والبحث عن هذا الموضوع ، فاجد الدوامي والخوارج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التفول على فكري ، وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه اصحابنا ، ومنه ما حدوته على امثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده ، وبعد مراميه ، وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وانضاف الى ذلك وارد الاخبار الماثورة بانها من عند الله عز وجل فقوى في نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (6) .

4 - وقال ابو الحسين احمد بن فارس : ان لغة العرب توقيف ، واستدل بالآية « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن ابو الحسين بعد ان اطلق كلامه هذا الاطلاق رجح فخصص ما عمم فقال : ولعل ظانا يظن ان اللغة التي دللنا على انها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الامر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج اليه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من الانبياء نبيا نبيا ما شاء ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فاتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا من قبله (7) .

الحسين احمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين ، وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة وقد عدل كلامه فضيق دائرة الديموى ، واما انكاره على العرب انهم اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤبة الحجاج وجريس وابن احمر الباهلي انفرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب ، وانهم كانوا يرتجلون اللفظة احيانا فهذا دليل على استمرار نمو اللفظة حتى العصر الاموي والى انقضاء عصور الفصاحة العربية قبل ان يسيل سيول المجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي ، وليست الواضحة والاصلاح والتواطؤ الذي يريده القائلون به، الا ان يخترع اللفظ مخترع فيقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بان اصل اللفظة توقيف ووحى يموزهم الدليل العلمي لا الدينى ولم نجد هذا الدليل فيما بين ايديهم من فروض واحتمالات .

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الاديبيين المحدثين طائفة على راسهم الاب « لامي » في كتابه « فن الكلام » ويستند الى نصي الفقرتين 19، 20 من الاصحاح الثاني من سفر التكوين وهما « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يرضه له الانسان فوضع آدم اسما لجميع الحيوانات الستائة وطيور السماء ودواب الحقول » .

وهذا الدليل فوق انه دليل دينى ليس فيه شيء من الاستدلال على اصل الديموى وقد بان من هذا ومما تقدم ان هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الآلة الثقيلة التي ليست نصا في الموضوع (10)

ولكن بعض العلماء توصل الى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الادلة الثقيلة وهذا الدليل : ان الانسان الاول لما كان نبيا فهو لا بد له لكي يفهم ما يوحى اليه ولا بلاغ رسالته من لفظة يستطيع بها تفهم وابلغ رسالته ، والا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فالله سبحانه لما خلق ابا البشر واصل الخليقة آدم عليه السلام واسكنه وزوجه الجنة ، وأوحى اليه هو وزوجه ان ياكلا من الجنة حيث شاءا وان لا يقربا

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفية ويرده ، ولقد بلغنا من ابي الاسود ان امرا كلمه بيمض ما اتكره ابو الاسود . فسأله ابو الاسود عنه فقال : هذه لفظة لم تبلغك . فقال ابو الاسود يا ابن اخي لا خير لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجتمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (8) .

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لفظة او احداث لفظة لم تتقدمهم (9) .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدلل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي ، لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها ، على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتصل اكثر من وجه فقد يمكن تاويلها بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها : قال ابن جنى في الخصائص بعد ان اورد الآية وهذا لا يتناول موضع الخلاف : وذلك انه قد يجوز ان يكون تاويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان ابو هالي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه .

وليس يعنينا بعد ذلك من الادلة التي استدلوا بها غير كلام ابن جنى وخلصته انه رأى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتأتى من غير الله ، وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في التدين فهو مقنع بقناع الدين . فان كثيرا من اعمال القدماء كالاغرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل نقول ان صناعتها هو الله من اجل اتقانها . على ان ابن جنى نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سبقناه ، لم يلبث ان شعر بما فيه من ضعف فاستدرك على نفسه بقوله ، كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه منا من العطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا حنانا فاقف بين الخليتين حسيرا واكاثرهما فانكفيء مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يملق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها . قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام ابي

شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به . فلا بد من غير شك انه علمهما معاني ما خاطبهما به وما اوحى به اليهما . بل الظاهر انه سبحانه علمهما ما يتخاطبان به فيما بينهما او مع الملائكة ، وذلك لانعام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز ان الله اودع في آدم وذريته الاولين قوة توسيع اللغة الاصيلة ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في اقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونفستها الخاصة « 11 » .

المذهب الثاني :

ان اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب ان الواضع للغة هو الانسان وان وضع لها ، كان على مراحل ، ولقد ذهب الى هذا المذهب اكثر اهل النظر ، كما قال ابن جنى في الخصائص . هذا موضع محوج الى فضل تأمل ، غير ان اكثر اهل النظر على ان اللغة انما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف « 12 » .

ولعل المراد باهل النظر في كلام ابن جنى المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جنى واستاذه ابو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب الزهر .

1 - حكى ابو الحسن علي بن محمد الامدي في كتاب « الاحكام » ان البهشية وجماعة من المتكلمين ذهبوا : الى ان ذلك من وضع اهل اللغات واصطلاحهم وان واحدا او جماعة انبعثت دأيمته او دأيمتهم الى وضع هذه الالفاظ بازاء معانيها ثم حصل تعريف الباقيين بالاشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الاخرس ما في ضميره بالاشارة والتكرار مرة بعد اخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (13) .

2 - وزاد ابن جنى على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا الى ان اصل اللغة لا بد فيه من الواضحة وذلك كان يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة من الاشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد

سمة ولفظا ، فاذا ذكر حرف به ما مسماه ، ليمتاز عن غيره ، وليفني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك اقرب واخف واسهل ، من تكلف احضاره بلوغ الفرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الاحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني . وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جار في الاستحالة والبعد مجراه ، فكانهم جاؤوا الى واحد من بني آدم فاوماؤا اليه وقالوا انسان انسان فاني وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هو الضرب من المخلوق ، وان ارادوا سمة عينه او يده اشاروا الى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم او نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا حرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الاسماء والافعال والحروف ، ثم لك بعد ذلك ان تنقل هذه الواضحة الى غيرها ، فتقول الذي اسمه انسان فليجمل مكانه مرد والذي اسمه راس فليجمل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام ، وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوتمت الواضحة عليها لجاز ان تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرهما وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الاسماء كالنجار والصانع والحائك والبناء وكذلك الملاح . قالوا : ولكن لا بد لاولها من ان يكون متواضعا بالشاهدة والايماء « 14 » .

وعلى ذلك اختلفت اقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت انفس الاصوات المرتبة على مذاهبهم في الواضحات ، وتوسط قوم بين المذهبين فذهب ابو اسحاق الاسفرايني الى ان القدر الذي يدهو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصلاح فالاصلاح عليه متوقف على ما يدهو به الانسان غيره ، الى الاصطلاح على ذلك الامر ، فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممنوع ، فلم يبق غير التوقيف ، وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقتين « 15 » .

وخلاصة الرد على اصحاب هذا المذهب في ان قولهم : باجتماع حكيمين او ثلاثة فصاعدا ، ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ، ليس الا مجرد خيال وحس وظن وان الظن لا يفني من الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بان الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجانفي طبائع الاشياء اذ ان التدرج

والحركات ، حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التي يسمها ، فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال: غاق ولما وجد حكاية الاصوات هذه تقي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللفظة ثم طرأ عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتألفت سائر الفاظ اللفظة من كل خاطر يخطر في النفس « 20 » .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضر معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « عومو » وهكذا واذا اراد الدلالة على معنى قطع الفصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قص » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة وقد قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداد فقالوا « صر » وتوهموا في صوت البازي تقطبا فقالوا « صرصر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم في هذا الطور الاول بكلمات متقطعة لا بجمل ، وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات « الاشياء او حكاية افعال ، اما الحروف التي تربط بين الكلمات في الجمل فلم تكن نشأت بعد « 12 » .

فانت ترى ان اللفظة نشأت بمحاكاة الانسان للاصوات الطبيعية وكانت المحاكاة في اول امرها مضموية اي لم يقصد بها الاصوات الحاكية : التعبير عن المعاني المحكي منها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز في اول الامر ، ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة وناقعة وسهلة في دلالتها على المعاني ، لهذا أصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللانصال بالغير ، فمضى هذا ان استعمل الانسان للاصوات الحاكية أصبح استعمالا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة : الرموز الصوتية ، ثم طرأ على الاصوات الحاكية الدالة : التركيب والنحت والحذف والزيادة والقلب والابدال ليدل الانسان على معاني جديدة باصوات متميزة وبعد ان التفث الى اهمية وفائدة الرموز الصوتية في الدلالة على المعاني المصوتة وغير المصوتة ، المادة وغير المادة ، وكان هذا على مراحل ثم ان التصرف في الاصوات الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات

والترقي من البسيط الى المركب ، هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها ظاهرة اللفظة كما يلاحظ ذلك في نشأة لفة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل ، لانه يجوز ان يكون التوقيف الذي قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللفظة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية في مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع بأحد المذهبين فذهب القاضي : ابو بكر الباقلاني وغيره من اهل التحقيق الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته واما وقوع البعض فليس عليه دليل قاطع ، والظنون متعارضة يمنع معها المصير الى التمييز ، ولذلك ايضا قال الأمدي والحق ان يقال ان كان المطلوب في هذه المسألة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب فالحق ما قاله ابو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها « 16 » .

المذهب الثالث :

ان اللفظة نشأت من الاصوات ويرى هذا ، العلماء الاوربيون المحدثون وسبق اليه علماء اللفظة العربية قال ابن جنى في الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللفظة كلها انما هو من الاصوات السموات كدوي الريح وحنين الرهد وخرير الماء وشحيج الحمار ، ونبيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الطيبي - صوت تيس الطباء عند السفاد - ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد « 17 » .

ويقول ابن جنى : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل « 18 » .

ويرى الاب « انستاس ماري الكرمللي » نفس هذا الرأي ويقول : الكلم وضعت في اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة لاصوات الطبيعة « 19 » .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتأخرين مثل : « آدم سميث » و « روكر ستيورت » ونقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما في ضميره بالاشارات

الاجتماعية ثم اقرت هذه الاصوات المنصرف بها مع الزمن ، فبعد كثير منها من اصله وهو الصوت الذي حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية وهكذا نشأت اللغة «22» .

ويستدل اصحاب هذا المذهب على صحته :

1 - بأنه اقرب المذاهب الى البساطة التي تقتضيها حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور الذي تقتضي به طبائع الاشياء والذي يلحظ في نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

2 - وبأنه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر في لغات الامم الاولية .

3 - وبأنه شبيه بنشأة لغة الطفل التي تتدرج من الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات المقطعة، ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد من المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب الى العقل ون لم يوصل الى اليقين في نشأة اللغات وقد ارتضاه ابن جنى في كتابه الخصائص حين قال : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذي ينتقل بالهواء الى حاسة السمع ، وتنقسم هذه الاصوات بحسب المصدر الى الذي تنبعث عنه الى تسمين : الاول الاصوات الطبيعية كصوت الريح او الرعد او النار، او جري المياه وانصبابها من علو الى اسفل ، وكاصوات الحيوان والطيور والاصوات التي تسمع من الانسان في احوال الانفعال كالانين والصراخ والعيويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات الحركات والانفعال التي يفعلها الانسان واصوت الآلات والادوات التي يستعملها كازباز الطائرات وجمعجة الطواحين وصوت المنشار في الخشب ووسوسة النقود والحلي وصرير الابواب وصلصة الاجراس وما اشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التي اخترعها لدعاء الحيوان او لرجوه ، وتنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي التي تمتد في استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة الانذار عند انتهاء الفارات وكصفير الحيوان او الانسان من غير ترجيع ولا تكرير. وهذا النوع ليس موضوع بحث اللغويين، والى اصوات مقطعة كالحروف التي يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج وكالاصوات الطبيعية التي سبقت الاشارة اليها فانها وان صدرت عن اشياء لا مقاطع لها كقطائع الانسان فقد تمكن حكايتها بالالفاظ اللغوية الانسانية ذات المقاطع والحروف جرت عليها احكامها «23» .

وهناك من العلماء من يقرر ان اصل اللغة الاصوات الانفعالية للانسان التي كان يطلقها الانسان في ظروف حياته البدائية وهي تختلف باختلاف حالته النفسية والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به وكانت تلك الاصوات في بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال بالغير بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن حالة من حالاته الانفعالية ، ولما ارتبطت هذه الاصوات بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكررهما عند تعرضه لها اتجه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها فاخذ يستعملها للاتصال بالغير وبهذا اصبح الصوت يخدم غرضا اجتماعيا وكان ان وسع مجال الصوت في الدلالة على الاشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة « 24 » .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين ان اصل اللغة يرجع الى جذور نفسية وفي هذا عدة نظريات :

1 - اصل اللغة رغبة الانسان في ان يرى الواقع مرمورا اليه وفي ذلك نجد الاستاذ سابر Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا يرى ان الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة . بل يرى ان منشأها رغبة الانسان في ان يرى الواقع مرمورا اليه او معبرا عنه بالرموز . ثم اكتشف مصادفة ان ذلك خير وسيلة للتفاهم « 25 » .

2 - اصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

3 - اصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفي هذا يقول « ماكس » وهو من اشهر من قال بهذه

وكان ان وسع من نطاقها وطورها لتخدم المراضه التي يمكن ان تؤديها .

المذهب الخامس :

الاصل الاجتماعي وخلصته : ان اللغة نشأت بظهور البكرة الاولى لتكوين المجتمع ، وان الانسان كان مضطرا لان يفهم نبع الاخرين لاسباب ودواعي كثيرة ، لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ، ثم اكتسبت هذه الاصوات صفة التباين النسبي حتى اصبحت لها دلالتها ، على معان معينة ، فاخذ يستعملها للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض ما ، فنشأة المجتمع هي سبب نشأة اللغة ، واللغة هي التي جعلت للمجتمع البشري وجودا انسانيا .

النظرية في القرن الماضي 1866 م « في الانسان قوة من شأنها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان الفكر اول ما يجول في دماغه كأنه يقرع تلك القوة لتصون بالفاظ يفهم الفكر منها ، وهذه الالفاظ هي اصول اللغة ثم تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب فتألفت مفردات اللغة ، ولما تم الاستنباط درج عليها الاستعمال ، ولم يبق لهذه القوة من حاجة ، فاهلكت وتضعفت ولم تعد تحس كما يضمف السمع والبصر لقلة الاستعمال » 26 .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشأت بسبب عوامل ودوافع نفسية بحتة ، ثم وجد الانسان الاول ان اللغة يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك

مراجع :

- 1 - انظر مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 73 - العراق .
- 2 - المصدر السابق ص 85 - 86 .
- 3 - الخصائص لابن جني . الجزء الاول ص 39 - 40 مطبعة الهلال بمصر
- 4 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ، الجزء الاول ص 105
- 5 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39
- 6 - المصدر نفسه ج 1 ص 45
- 7 - فقه اللغة للصاحب ص 5 - بيروت
- 8 - المصدر السابق ص 6
- 9 - نفس المصدر السابق ص 7
- 10 - مجلة «المعرفة» العدد 3 من السنة الاولى - المملكة العربية السعودية .
- 11 - مجلة «النجف» العدد السادس من السنة الثانية ص 38-40 - العراق .
- 12 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 39 .
- 13 - مجلة «المعرفة» السنة الاولى ، العدد 3 - السعودية .
- 14 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 41-42 .
- 15 - الاحكام في اصول الاحكام للامدي ج 1 ص 106
- 16 - مجلة «المعرفة» السعودية العدد 3 السنة الاولى .
- 17 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 44-45 .
- 18 - نفس المصدر السابق ص 45 .
- 19 - دراسات في فقه اللغة ص 155 - العراق (الدكتور صبحي العالم)
- 20 - معجم «متن اللغة» ج 1 ص 18 (الشيخ أحمد رضا) - العراق .
- 21 - مجلة المعرفة السعودية الجزء الثالث السنة الاولى .
- 22 - مجلة «النجف» العراقية العدد 6 من السنة الثانية ص 50-51 - العراق .
- 23 - مجلة «المعرفة» السعودية السنة الاولى الجزء الثالث .
- 24 - مجلة النجف العراقية العدد السادس ص 51 - العراق .
- 25 - اصول تدريس اللغة العربية ص 10 العراق .
- 26 - معجم متن اللغة ج 1 ص 19 . والزهر للسيوطي ج 1 ص 36 .

تخطئة الصواب

الأستاذ عبد الحمن فاضل

(الدار البيضاء)

تطورات وتحويرات في كل جيل ماض . واننا لو اطلعنا على اللغة التي تكلم بها القوم قبل الاسلام ببضعة قرون لوجدنا ان اختلافاتها عن اللغة الجاهلية التي وصلتنا غير قليلة . بل ان الاختلافات كانت كثيرة حتى عند ظهور الاسلام بين قبيلة وقبيلة في بعض التعابير مما سبب سوء التفاهم احيانا والفواجع احيانا ، مما دونه لنا الاسلاف .

واذا اعتبرنا ان الاقدم افصح من الجديد المستحدث فقد ارتنا دراسانا الترسيبية ان بعض الالفاظ التي نسميها عامية اقدم من نظائرها الفصحى . اي افصح : وبعبارة اغرب ان بعض الالفاظ الفصحى مولدة او دارجة بالنسبة الى الالفاظ المسماة مولدة او دارجة .

وصفة القول ان اللغة كائن حي متطور ، لا يمكن ان يقف تطوره من حال الى حال الابدية . وما دامت الاجيال الجاهلية قد استعملت حقها في التحوير والتطوير عفويا فمن حق كل جيل جاهل او عالم ان يستعمل حقه في ذلك عفويا وعمديا . ومن يقرأ علم التعمني (Semantics) (1) يعرف تأثير الاطفال والخدم والدهماء في تطوير اللغة جيلا بعد جيل - بالاضافة الى الشعراء والبلغاء .

وبينما هذا هكذا اذا بغثة من الناس يخطئوننا كلما تكلمنا - بحجة من الحجج المعجبة الواهنة ،

كنت قرأت في صباي في احد الكتب القديمة ان قولك (اسميت الشيء) افصح من قولك (سميته) . ففرحت بهذه اللقطة استفدتها من ذلك الكتاب ، ودأبت على القول : اسماء ، واسموه ، وهو يسمى - بتسكين السين . . وصرت احور عباراتي في دروس الانشاء لكي اجد المجال فيها لاستعمال هذه الصيغ ، الفصحى على قول ذلك الكتاب .

ثم اتفق اني قرأت في كتاب آخر ان قولك (اسميته) خطأ وان الصواب (سميته) بالتشديد ، فتعجبت وتحيرت .

ثم اطلمت مع الزمن على مجادلات بعض اللغويين ومهاتراتهم وافتئاتهم على اللغة ، وفرضهم على الخلق آراءا خلافية ، وتحريمهم اخرى جوازية ، وتسفيه بعضهم بعضا مجرد المخالفة والمناكدة .

فتعلمت من ذلك ان الفصحى ما تكلم به فصحاء الناس ، بصريا كان مذهبه ام كوفيا ، ومقبولا عند بعض العلماء ام مرفوضا ما دام مقبولا عند الآخرين . اي اني اخذت بالقاعدة الدينية : يسر ولا تعسر .

وزادتني دراسة اللغة خبرا ، لتبين لي ان ما نسميه كلام العرب ، او العربية الفصحى ، انما هو اللغة التي دونها لنا المدونون ، اي لغة الجاهلية ، وان هذه اللغة لم تصلنا الا بعد ان طرأت عليها

(1) اي علم دلالة الالفاظ او تطور المعاني . نسميه « التعمني » من المعنى لا من المعناه .

في كلام العرب سابقا فقد آن لها ان ترد منذ اليوم ،
فان تعبير (نفس الشيء) له استعماله وتعبير
(الشيء نفسه) له استعماله .

ولست اعلم كيف انتشرت هذه الخرجلة هذا
الانتشار من مشرق العالم العربي الى مغربه ،
فاصبح حتى المتعمسون من الكتاب يتجنبون على
نحو واضح استعمال تعبير (نفس الشيء) في
كتابتهم ، ويقولون (الشيء نفسه) بدلا منه بالرغم
مما في ذلك من ركاكة وتعمل احيانا .

انا شخصيا كنت مصرا على استعمال (نفس
الشيء) حينما استحسنت ذلك بصرف النظر عن
ورودها او عدم ورودها في لغة العرب . لكن اتفق منذ
عدة اعوام ان اهديت رأيي هذا لبعض الاصدقاء فقام
احدهم - صاحب الدار الذي كنا في زيارته - الى
المعجم ، واذا القول بعدم ورودها في لغة العرب
مكذوب من اساسه . وقد ضرب المعجم مثلا
لاستعمالها بقوله « نفس الجبل مقابلي » .

كيف حدث ان انتشرت هذه الازعومة هذا
الانتشار بحيث صار يعتبر كل ما يخالفها خطأ ؟
لست ادري . لكن الذي ادويه ان الكثير من
التخططات لا يمرر له ، وما عليك عندما يخطئوك الا
ان تتناول المعجم عند وصولك الدار . وسترى احيانا
ان مخطئك هو المخطيء ، او ان المسألة جوازية
يصح فيها الوجهان ، او اتثر من الوجهين !

اختلف شاعران ذات مرة في كلمة (الوداد)
وردت في شعر احدهما ونطقها بكسر الواو فقال
الآخر ان الصواب نطقها بضمه . فسألاني ان احكم
بينهما ، فضحكت وقلت : الحقيقة اني كنت اظن
الصواب نطقها بفتح الواو ! ورجعنا الى المعجم فاذا
بها يصح نطقها بفتح الواو وضمه وكسره جميعا . .

مهمة ام هامة ؟

وسترى ان مراجعة المعجم مفيدة دائما ، ان لم
تكن في الرد على معارضك ففي تأييد اعتراضه
وتصحيح خطئك ان كنت مخطئا حقا .

قال لي احدهم قبل بضعة سنوات ان (المهم)
خطا وان الصواب هو (الهام) ، وعلى هذا لا يقال :
ذهب فلان في مهمة بل في هامة !

ويقترحون علينا بدلا من التمايز المستحدثة التي
ترد على الستة تعابير اخرى لا ندري من اين جاؤوا
بها، وهي ايضا مستحدثة ، من عند انفسهم ،
وليس ثمة ما يرجعها على المستحدثات التي
يخطئونها . بل ان بعضهم يخطيء صوابا صراحا
يفرض بدلا منه خطأ صراحا .

نفس الشيء :

بمئت ذات مرة مقالا الى مجلة معروفة وردت
فيه هذه العبارة : « .. لصدر منه نفس التصرف
الذي صدر منه .. ولسارت القصة .. الى نفس
النهاية المحتومة » .

فما كان من المصحح الهمام الا ان قلب العبارة
فجعل عاليها سافلها فصارت هكذا : « .. لصدر
منه التصرف نفسه الذي صدر عنه .. ولسارت
القصة .. الى النهاية المحتومة نفسها » .

ولكان حذف هذه الفقرة من المقال احب الي من
مرضها على انظار القراء بهذا السبك المضطرب
القبيح .

لقد اعتبر المصحح ان الخطأ في عبارتي من
الوضوح والبداهة بحيث يحق له ، بل يجب عليه ،
ان يتناول بقلبه فيصححه .

نعم ، كثيرا ما قيل لي ان (نفس الشيء) خطأ
وان الصواب ان اقول (الشيء نفسه) . فاذا
سألتهم عن السبب قالوا ان (نفسه) بدل من (الشيء)
في الامراب . فعندها اقول لهم ان ورودها (بدلا) في
هذه الجملة لا يعني انها يجب ان تستعمل بدلا في كل
جملة ولا يجوز استعمالها مضافة الى (الشيء)
ايضا .. فان كون (متروم) مثلا مجرورا في قول
عنتره العبيسي « هل غادر الشعراء من متروم » لا
يعني اننا لا يحق لنا ان نورد الكلمة مفعولا به فنقول
- مع احترامنا للوزن - « هل غادر الشعراء متروما »
.. وان كون (غفورا) اسما لكان في الآية « كان الله
غفورا رحيمًا » لا يعني انه لا يجوز ايرادها خبرا (لان)
في آية اخرى « ان الله غفور رحيم » .

ولا انهم كيف لا يجوز في منطقتهم اضافة
(نفس) الى (الشيء) ويجوز اضافتها الى الضمير
التابع له (الهاء)!

ويقولون - وبالعجب - ان (نفس الشيء) لم
ترد في كلام العرب ، فكنت اجيبهم ان كانت لم ترد

لكن تعبير (همه الامر) يعني اقلقه واحزنه ، او احزنه حتى اذابه ، ومن ثم صار (الهم) يعنى الدوبان - حتى ذوبان الثلج . واما (اهمه الامر) فيعني اقلقه واحزنه ، ومن هنا جاء قولهم (اهمه الامر حتى همه) اي احزنه حتى اذابه . ومن معنى القلق قبل (اهمه الامر فاهتم به) ، وهكذا نشأت صيغ الاهتمام والهمة والمهمة ثم الاهمية .

وإذا كان صاحبي قد راجع معجما (مهما) بعد افتراقنا فقد صحح رأيه ، والا فهو لا يزال يظن ان رأيي في حاجة الى تصحيح .

على ان (المهم والمهمة) قد صدر الحكم ببراهتهما ورفع العطر عنهما أخيرا ، فقد سمعت من احد اساتذة العربية من انصار (الهام والهامة) يقول ان تخطئة (المهم والمهمة) خطأ ، وان الكتاب اخذوا يستعملونهما . ولا ندرى من الذى حرم ولا من الذى حل . الا ان الواضح هو ان المسألة كانت تنتهي على خير لو روجع المعجم من اول الامر .

لكن التحذير الذى لا نجد بدا من ذكره هنا هو الا نتخذ من المعاجم المصرية المختصرة حجة دامغة ، فكثيرا ما تهمل هذه المعاجم بعض معاني الكلمة او اشتقاقاتها ، بالإضافة الى انها لا تخلو من اغلاط لغوية ومطبعية .

استهدف :

من احسن ما توصل اليه القدامى من اللغويين العقلانيين قولهم ان ما قيس على كلام العرب فهو منه .

فالمعجم اولا لا يذكر للكلمة جميع صورها الاشتقاقية بل ما روي منها من العرب فقط أي ما سمعه اللغويون منهم منها ، ولا بد ان ما لم يسموه كثير . فاذا لم نجد في المعجم لاحدى الكلمات صيغة الفاعل او المفعول او الانفعال او التفعّل .. فهذا لا يعنى ان العرب لم يستعملوا هذه الصيغ من تلك الكلمة، وانما يعنى ان اللغويين لم يسموها وحسب. ثانيا : حتى لو صح ان العرب لم يستعملوا بعض الصيغ لما كان معنى ذلك اننا لا يجوز لنا ان نستعملها بالمعنى القياسي الذى تدل عليه اوزان تلك الصيغ ، فلكل جيل حاجاته اللغوية ومحسناته التعبيرية .

ثالثا : انه ما من لغوي معاصر - مهما يكن معجميا - لا يستعمل بعض التعابير المستحدثة التى

لم ترد على السنة العرب الاقدمين او وردت على سنتهم في غير معانيها الحاضرة ، مثل : التشريع والانتاج والفنان .. وبعضها مفلوط اصلا مثل : المشروع (مفرد المشاريع) والثلاجة والمفكرة والحكومة والدولة والدوائر (الحكومية) والمرسوم والرسمي والتشريفات والتقارير ومحرر (الجريدة) .. لقد بدا للمحدثين ذات يوم ان يقولوا (استهدف الامر) بمعنى رمى اليه او قصده ، غير ان هذا التعبير القياسي السائغ اخفى وحل محله (هدف الى الامر) .

وحجة الذين يخطئون (استهدف) هي ان العرب انما قالوا (استهدف الشيء) بمعنى ارتفع ، و (استهدف له الشيء بمعنى انتصب، لكنهم لم يقولوا، اي اننا لا نعلم انهم قالوا (استهدف الشيء) بمعنى نصبه هدفا او جعله نصب عينيه .

وجوابنا على هذا هو ان العرب لم تقل (هدف اليه) ايضا بهذا المعنى . فاذا كانت المسألة مسألة تحريم ما لم يرد في المعجم فان تعبير (هدف اليه) حرام مثل (استهدفه) . بل هو احرم لانه مؤلف من كلمتين بدلا من كلمة واحدة . وان كانت المسألة مسألة قياس واجتهاد فان الاجتهاد والقياس يعضدان صيغة (استهدفه) لان العرب قالوا (استخدمه) بمعنى اتخذه خادما ، و (استعمله) بمعنى اتخذه عاملا ، و (استكتبه) بمعنى اتخذه كاتبيا ، و (استوزره) بمعنى اتخذه وزيرا .. فلماذا لا يحق للعرب المعاصرين وحدهم ان يقولوا (استهدفه) بمعنى اتخذه هدفا ؟

الشارح الرئيس :

سألني احدهم : هل الصواب نطق (العلاقات الدولية) بفتح الدال نسبة الى الدولة ام بضمه نسبة الى الدول ؟ فقلت له : كلاهما خطأ وكلاهما صواب . والذي اعنيه ان النسبة الى الدولة خطأ عقلانيا، لان المعنى المقصود هو العلاقات بين الدول . واما النسبة الى الدول فخطأ نحويا . فمعلوم ان من مقتضيات القاعدة العربية (الجاهلية) اعادة صيغة الجمع الى الانفراد وصيغة فاعل الى (فاعل) - بفتحيتين - قبل اضافة ياء النسبة . ففى النسبة الى القبائل يقولون (قبلى) بفتح الباء ، والى الربيع يقولون (ربيعى) بفتحها كذلك .

وقد قال لي احد الاساتذة ذات يوم وهو يقرأ شيئا من كتاباتي «اسمح لي ان اصحح هذه الكلمة».

هندل (الراسي) ومعناها يلتبس بمعنى العمودي ضد الاقني . فللخروج من هذا المازق صرفوا النظر من ياء النسبة وقالوا (الشارع الرئيسي) و (الفكرة الرئيسية) و (الامور الرئيسية) .. كانما هنالك رؤساء ومرؤسون بين الشوارع والاشياء كما بين البشر . اي اننا نضحي بالمعنى ونجالي المنطق في سبيل التمسك بقاعدة غير لازية .

افليس الامثل ان نقتدي بعرب الجاهلية ونقول: الشارع الرئيسي والفكرة الرئيسية ، قياسا على المدني والخريفي .. ونستريح ! ام نحن اشد جاهلية من الجاهليين ؟

اذا فرض علينا ان نعيد كل كلمة الى اصلها المجد قبل ان نلحق بها ياء النسبة كان علينا ان ننسب الى كل من (الام) و (الامة) و(الاسم) بكلمة واحدة هي (الامي) . لكن المعاصرين حلوا بمضى المشكلة يوم قالوا (الامي) نسبة الى الامم ، ولا نستجد ان ياتي جبل اقل اكرالا بالقواعد التقليدية منا فيقول (الامي) نسبة الى الامة .. كما يقول بعضهم اليوم (الحياتي) نسبة الى الحياة بدلا من (الحيوي) التي صارت تعني الجوهري والضروري .

اولم يقل العرب الاقدمون : مدني ومدني ومدني ومداني ؟

* * *

هذا تقوله مع الاعتذار الى الاساتذة الذين ورد ذكر بعضهم تنويها في هذه الكلمة ، فاننا لا نقصد الطعن بأحد بالاماع الى مناقشات لغوية جرت لنا مع بعضهم ، وانما هي آراء لنا نظنها صائبة ونظن نشرها اصبح من الضرورات اللغوية ، لتصبح موقف الكتاب من الكلمات الشائعة التي تصدنا لها ومن امثالها اولا ، ولاظهار مذهبنا في الاخذ بالقياس وضرورة الرجوع الى المعجم عند الاشتباه ومدى التزامنا بما ينص عليه المعجم ثانيا . والحكم للقاريء وللزمان على كل حال .

قلت « اية كلمة ؟ » .. قال « كلمة بديهي ، فانه يقال طبيعي من الطبيعة شذوذا لكن لا يقال بديهي من البديهة ، فالصواب بدهي » . قلت له « ان اهل الاختصاص من العرب في عصور الثقافة تالفا وترجمة - اي العهد المباسي - قالوا بديهي كما قالوا طبيعي ، فان كانوا مخطئين ليجبني ان اخطئه معهم » .

والواقع ان العرب القدامى نسبوا الى صيغة فعيل ايضا في بعض الاحوال دون ان يجردها من الياء ، في مثل قولهم (الخرفي) و (الخريفي) دون تفريق نسبة الى الخريف ، و (المدني) للانسان و (المدني) للطائر ونحوه نسبة الى المدينة .

اما الجمع فليست ادري كيف استغنى العرب الاقدمون عن النسبة اليه بوجه عام ، لكنني ادري انهم كانوا اذا دعت الحاجة يخرقون هذه القاعدة غير الذهبية مند خشية الالتباس . ومن ذلك قولهم (انصاري) و(مداني) نسبة الى الانصار والمدائن . بل انهم نسبوا الى المشي ايضا فقالوا (بحراني) نسبة الى البحرين . (وهذه من المفارقات اللغوية فان اسم البحرين ينطق بالياء دائما والبحراني بالالف دائما) . وقياسا على هذا نقترح النسبة الى بلاد الرافدين - العراق القديم - بصيغة (رافداني) بدلا من القول انه (يمت الى ارض الرافدين) .

فاذا كان عرب الجاهلية ، اصحاب القاعدة ، انفسهم قد خرجوا على قاعدتهم عند اقتضاء الحال فما بالنا نحن نتخرج من ان نعدو حدوهم وحاجاتنا اوسع من حاجاتهم وكلامنا اكثر تعقيدا وتعرضا للالتباس من كلامهم ؟

ان قاعدتهم الحقيقية هي الشذوذ عن القاعدة عند الضرورة .

كثيرا ما يصادفنا تعبير (الشارع الرئيسي) بدل (الرئيسي) . والذي دلعمهم الى هذا فيما يظهر هو انهم لم يستطيعوا الحاق ياء النسبة بكلمة (الرئيس) بعد تجريدها من الياء ، لانها تصبح

تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

الاستاذ عبدالعزیز بن عبد الله

واصل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءت من طريق القيروان التي بدأت تنصر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فأقيمت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق واندالك من روائع امتزج فيها المنصران الفارسي والروماني واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطرافها الجديد امكنا القول بان الشام كانت ينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر في عهد الادارة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشاتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتب الادارية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول مبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمانيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقبائرها ومسجديها مظهرا خافتا لعاصمة دمشق .

عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الان كالمملكة الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالدساكر والانتصار في الاكل على الكسكس والميد وشرب اللبن والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاقواس والخناجر والدرفقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلّى النساء بالاسورة والمعقود وتمتاز المرأة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية وبرز الاطراف السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الاولى بمسادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختطاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدث البربر الى التفكير في وضع احرف « تفتاغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونثف من العبرية لم تترك اثرا يذكر في اللهجات المحلية .

(1) ماضي افريقيا الشمالية - كويبي ص 148 .